على هامش النقد

عرائس وشياطين

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

للأستاذ سيد قطب

« هذه الصفحات نخبة مجموعة من وحى العرائس ذوات الشياطين ، أو من وحى الشياطين ذوى العرائس . تلقيناها من من هؤلاء وهؤلاء وجمعناها هدية إلى القراء . وكل ما توخيناه فيها أن نتجنب التكرار كما نتجنب الاسفاف والاطالة

« فهذه قصائد من الشعر العربى أو العالمى ، يكثر فيها الايجاز ويقل الاسهاب ، ويندر فيها المشهور المتكرر على جميع الأسماع ...

« وحسبنا منها شرط واحد نرجو أن يتحقق لها جميعاً فى رأى قرائها ، وذاك أنها — وهى من وحى العرائس والشياطين — خير ما يقرب الانسان إلى قلب الانسان »

عباس محمود العقاد

جدّ لى رأيان متناقضان فى هذه المجموعة ، هما اللذان أستعرضهما هنا مع القراء : ففى أثناء القراءة الأولى السريعة ، ولم أنته بعد من المجموعة ، ولم أتبين مواقع قصائدها ومقطوعاتها فى نفسى . فى هذه القراءة التى يلتفت فيها الذهن إلى أكثر الأشياء التماعا ويلتفت فيها الحس إلى أشد الأصوات تصدية ... عندئذ قلت : إن الشعر العربى يستطيع أن يقف على قدميه أمام الشعر العالمى

وحينما انتهيت من قراءة المجموعة وخلوت إلى نفسى أتبين موقع كل قطعة وكل قصيدة ، وألمح وراء الألفاظ والمعانى ، ما ترسمه من ظلال إنسانية وما تصوره من حالات نفسية . عندئذ قلت : إن هذه المجموعة صحيفة اتهام للشعر العربى ! فأى الرأيين هو الخطأ ، وأيهما هو الصواب ؟

مرجع الحكم فى هذا هو طريقة إحساسنا بالحياة ، وحقيقة مطالبنا من الشعر . فأما أنا فلا أتردد فى القول بأن الحياة فى صميمها إن هى إلا انفعالات واستجابات ، وعواطف وحالات نفسية ، وأن الأفكار والمعانى إن هى إلا بلورات صغيرة على سطح الحياة ، وكثيراً ما تكون معوّقات لجريان الحياة ، وإن كانت فى أحيان قليلة تساعدها على التعمق والنفاذ

أيؤمن حضرته بأن هذه الأرض التى نعيش فوقها وهى تسبح بنا فى السموات وهم فى وهم ؟ وأن الشمس التى تنير لنا ظلمات البر والبحر ، وهم فى وهم ، وأن كل شىء من هذه المدركات وهم فى وهم ، حتى الأستاذ زكريا نفسه وهم فى وهم ، وأن ليسانسيه الآداب والفلسفة بدرجة الشرف الأولى التى حصل عليها بعد أن أذاب بصره وصهر مخه وهم فى وهم ، وأن أساتذته المحترمين المبجلين وهم فى وهم ، وأن البطيخ اللذيذ البارد الذى يطفئ حر الظمأ فى هذا الصيف القائظ وهم فى وهم ، وأن باعة هذا البطيخ الذين يشتطون فى ثمنه هذه الأيام وهم فى وهم ؟!

أيؤمن حضرته بأن جدار غرفته التى يقرأ فيها كتب فلسفاته وهم فى وهم ، وأنه لو نطح برأسه هذا الجدار لما سال الدم منه لأن الجدار وهم فى وهم ، ولأن رأسه وهم فى وهم ، وحتى لو فرض أن سال الدم ، فالدم وهم فى وهم ؟ ! ما هذه الفلسفة يا عالم ؟! ولماذا يعز عليكم أن نصف هذه الفلسفة بأنها إفك وأنها تنطوى على كثير من الأراجيف ؟ ولماذا يكون من قلة الإنصاف أن نحكم على الفلسفة باسم الدين ، ما دامت هذه الفلسفة كما رأى الأستاذ زكريا تحاول نقض ديننا الكريم القويم ، وما دامت هذه الفلسفة تدعونا إلى ذلك التدهور الأخلاقي والتحلل من جميع الآداب ؟ أيؤمن الأستاذ الفاضل زكريا إبراهيم بتساوى المتضادات كما يؤمن الرصافى ؟ أيؤمن بأن الدعارة كالتقى ، وأن إكباب المرء على حليلته لا يقل عن سجوده بين يدى الله ؟ أم أن هذا هو حكمنا على الفلسفة باسم الدين ، وهذا قدر ذلك الحكم من الخطأ والمجازفة والتعسف ؟

وما رأى أستاذنا الفاضل المحبوب نقولا الحداد فى هذه الفلسفة التى لا تعترف بالعالم ، أو بالطبيعة التى لا يؤمن حضرته بما عداها ؟!

يا عالم ... الدنيا حَر ، ونحن موجودون ... فكونوا أنتم وهماً فى وهم ... ودعوا لنا ديننا الفطرى الجميل الساذج ... فالعالم يجد وأنتم تلهون .

دمنهور

سيد قطب

وليس « الإنسان » الراقى هو الذى تستهويه المعانى المجردة والأفكار المبلورة ، ـ كما يعتقد الكثيرون ـ ولكنه الإنسان الذى يتعمق حسُّه أدقّ المشاعر وأجلها ، والذى يدرك نبضات الحياة وانفعالاتها ، والذى يتخذ من ذلك كله غذاء لحسه وفكره جميعاً

والشعر هو نبضة قلب قبل أن يكون لمعة فكر ؛ وهو خفق حياة ، قبل أن يكون فكرة ذهن ، وهو حالة نفسية قبل أن يكون قضية فكرية ؛ وهو ظلال إنسان قبل أن يكون التماع أفكار ، ووسوسة أهدة قبل أن يكون رنين ألفاظ

فإذا نحن نظرنا إلى الشعر العربى بهذه العين فى مجال الشعر وجدناه فقيراً فى الظلال الإنسانية والحالات النفسية بمقدار ما هو غنى بالأفكار والمعانى والاستجابات الحسية المباشرة التى لا تتعمق النفس الإنسانية إلى مدى بعيد

والتعبير العربى ـ وبخاصة فى الشعر ـ تعبير مباشر أقرب ما يكون إلى الاستجابة الحسية ، فهو يؤدى الفكرة أو المعنى ، ثم لا تلمح وراءه مخلوقاً إنسانياً . إنك تلمح ولا شك فكراً وحساً ، ولكن المخلوق الإنسانى الذى يشتمل الفكر والحس ويشتمل بجوارهما حياة آدمية كاملة قلما تلمحه وراء التعبير العربى

ولقد خيل إلى مرة أن هذه اللغة نبتت فى الظهيرة على صحراء مكشوفة . فهى لا تلقى حولها ظلا . ليس هناك ما يسمونه « بين السطور » كل لفظ وكل تعبير يقابله معنى أو فكرة ، ثم لا شىء وراء المعنى ووراء الفكرة . لا ظل . لا صورة . لا رؤى فى الضباب غير مميزة الملامح بينما تثير فى النفس شتى التخيلات وشتى الاهتزازات

وبمقدار الغنى فى الأفكار والمعانى الذى تضمنه الشعر العربى ، كان الفقر فى الرؤى والأحلام ، وفى الصور والظلال ، وفى الحالات النفسية ، والملامح الإنسانية ؛ وهذا هو مفرق الطريق بين الشعر العربى وكثير من الشعر العالمى فى مجموعة « العرائس والشياطين »

حتى شعر الغزل عند العذريين وغير العذريين ، قلما تجد فيه وراء اللفظ إلا المعنى ، ووراء التعبير إلا الفكرة . قلما تلمح الحالة النفسية والملامح الإنسانية ، قلما تتسمع الوسوسة والهينمة التى لا تعرف مصدرها ، ولا تدل عليها الألفاظ بذاتها ، ولكن تدل عليها الظلال التى تلقيها الألفاظ وتتوارى خلف التعبيرات .

إن بيتين ساذجين بسيطين كقول مسلم بن الوليد (فيما أذكر) وقد حضرته الوفاة وهو وحيد غريب وليس حوله إلا نخلة بجرجان يناجيها فيقول :

ألا يا نخلةً بالسَّفح من أكناف جُرْجان
ألا إنى وإياك بجرجان غريبان

إن هذين البيتين لهما نموذج راق فى الشعر العربى ، وهو نموذج متواضع بالقياس إلى الشعر العالى ، ولكنه كذلك نموذج نادر !

فإذا فى هذين البيتين الساذجين . فيهما أن المعنى والفكرة يتواريان ليفسحا المجال للصورة الإنسانية والحالة النفسية . صورة الإنسان الغريب المفرد تقربه الغربة من كل مخلوق ، ويرهفه الانفراد إلى الأنس بكل كائن ، وخلع الحياة عليه ومعاطفته معاطفة القريب للقريب

وعلى هذا النحو ينبغي أن ننظر إلى الشعر ، على أساس ما يثير فى نفوسنا من أحاسيس ، وما يرسم لخيالنا من صور ، وما يطلقنا من أعيان الفكر المحسوسة المحدودة ، ويصلنا بصور الإنسانية وبالحياة المكنونة . وذلك فيما اعتقد واجب شعراء الشباب

ولكن حذار أن نفهم من هذا ما يفهمه بعضهم من تلك الفوضى . إن الشعر ـ مع هذا ـ ليس تهيؤات مخبول ، ولا تهاويل مذهول . والحالات النفسية المطلوب تصويرها ، ليست هى خلط المجانين ، وتداخل الاستعارات وتراقص التعبيرات . إن بين الشعر وبين هذه التهيؤات والتهاويل لبعداً سحيقاً ، فإذا لم يكن بد من هذا البلاء فلا ، والشعر العربى القديم بحسيته وتجريده أقوم وأهدى ، وأخلد فناً

* * *

وإلى القراء بعض الأمثلة الحاسمة بين المعانى والأفكار ، وبين الحالات النفسية والصور الإنسانية فى قطعة من مجموعة العرائس والشياطين ، للشاعر الإنجليزى الحديث « هوسمان » بعنوان « إلى السوق أول مرة » وليست هى بأغنى ما فى هذه المجموعة من هذا الرصيد

النثر . فماذا تسمى هذا من صاحب الكتاب ؟ إن لم يكن تناقضاً فهو على الأقل عدم دقة في الفهم والتفكير

ولعلك لاحظت أن صاحب الكتاب حين أراد أن يحكم بين الشعر والنثر فى المنزلة بادعائه مواطن للقول لا تصلح إلا لأحدهما دون الآخر ، لم يتم التقسيم من ناحية ، ولم يبين تلك المواطن من ناحية أخرى . لكن يظهر أنه ترك بقية التقسيم لفطنة القارىء ، وإن كان هو ليس عنده من الفطنة ما يتجنب به إبطال شهادة ثانى شاهديه ؛ أما مواطن كل من الشعر والنثر ، فقد عاد إلى تبيينها بقوله من صفحة ٣٦ : « قلنا إن الموضوعات هى التى تحدد نوع الصياغة ، فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلاً بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب ، لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع ، وإذا كان الموضوع متصلاً بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب ، لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع » . وتلاحظ أنه هنا قد عدل عن صيغة القصر إلى صيغة التفضيل ، فهو يبيح لكل من النثر والشعر أن ينوب عن صاحبه ، وإن لم يسد مسده ويغن غناءه ، لكنك تلاحظ أيضاً أن كلمته الحاسمة هذه ، وإن كانت أرخى زماماً من كلمته الأولى التى لم يسبق إليها ، قد أخرجت الشعر من مجال العقل وأخرجت النثر من مجال القلب من حيث السبق فى الإجادة والصلاحية للتعبير ؛ فالسبق دائماً للشعر فى مجال القلب ، وللنثر فى مجال العقل من غير نظر إلى الشاعر ولا إلى الكاتب . أى أنه لم يعر شاعرية الشاعر ولا كاتبية الكاتب أى التفات ؛ فعنده أن المواضيع المتصلة بالقلب يجب أن يتناولها صاحبها بالشعر ؛ فإن لم يكن شاعراً لم يكن له أمل فى النبوغ . ومثل هـذا يقول طبعاً فى المواضيع المتصلة بالعقل . ولسنا ندرى — ولا نظنه يدرى — من أين له هـذا الحكم النظرى البحت ، وإن ادعى له الحسم . كما لا ندرى ما رأيه فى مثل معلقة الحارث بن حلزة ، وهى خطبة جدلية فى قصيدة . لكن الأهم من هذا وذاك أنه وهو يبحث ويأتى بالحاسم من الرأى لم ير داعياً لأن يحدد الاتصال بالمشاعر والعواطف والقلوب ما نوعه وما مداه ، إذ غير معقول أن يكون كل ما اتصل بالشعور أولى به الشعر ، ولا كل ما اتصل بالفهم أولى به النثر ، وإن كان الثانى أقرب إلى المعقول من الأول . فالحارث بن حلزة ألقى خطبة شعرية للعقل والجدل منها أكبر النصيبين ، ولم يمنعه ذلك أن يذكر بها مدى الدهر . والخطب الوعظية أو الدينية فى الصدر الأول ، وبعد الصدر الأول ، لها من القلب والشعور أكبر النصيبين ، ولم يمنعها ذلك أن تؤثر ويذكر بها أهلها مدى الدهر ، فأين هو ذلك الحسم الذى ادعاه صاحب الكتاب بكلمته تلك ؟ إنها كلمة مبهمة ، لا حسم فيها ولا فصل ، وهى مثل للتقصير فى النظر ، وعدم الدقة فى التفكير وفى التعبير

على أننا نفرض أن صاحب الكتاب أراد بذلك الذى سماه اتصالاً بالمشاعر والعواطف والقلوب ، على أقل تقدير علاقة الحب . فهل تظنه حين فى هذا كان أدنى إلى الدقة فى بحثه والاحتراس فى التعبير ؟ هل تسوى بين النثر والشعر فى هذا الباب ؟ إن كنت تظن هذا فقرأ ما كتب فى صفحة ١٥٧ فى فصل النسيب : « وفى القرن الرابع يظهر الغزل فى النثر ظهوراً رائعاً بحيث يمكن مقارنة رسائل الغرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الارتياب فى عبقرية كتاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم فى ضروبه تصرف المبدعين » . فأين ذهبت إذن هذه الكلمة الحاسمة وذلك الرأى الذى لم يسبق صاحب الكتاب إليه ؟ أم هو مجرد كلام يثبت باسم البحث فى صفحة ٣٦ وينفى باسم البحث أيضاً فى صفحة ١٥٧ ؟ وإذا كان صاحب الكتاب لا يستطيع الاحتراس والتزام الدقة حتى فى أضيق الدوائر وأصغرها وأقربها إلى ما ألف وألف الناس ، فمتى يرجى منه أن يقوم بما يوجبه البحث من الدقة والاحتراس والاحتياط ؟ ولا تنس أن عبارته هذه قد كتبها وهو يبحث عن خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع ، أو هكذا على الأقل قد ترجم للباب الثانى من الجزء الأول من كتابه ، فلا يمكن أن يعتذر له عنها بالمبالغة أو التحمس كما يعتذر للناشئين ، لأن النثر الفنى فى القرن الرابع هو موضوع بحثه الأصيل ، وما عدا ذلك فهو ملحق به محشور فيه . وإذا كان هذا الرجل جاداً فى بحثه ، يعتقد ما يقول ويقرر ، فلماذا لا يطبقه ؟ وإن كان يطبقه فلماذا لا يتعلم كيف يحسن التطبيق ؟

محمد أحمد الغمراوى